

راغب عياد عراب الحداثة الفنية في مصر وعقدتها

الرسام المصري استطاع أن يصنع نموذجا مجسدا للروح المصرية، فصار أسلوبه في رسم الشخصيات معيارا لقياس أصالة الأعمال الفنية.

العرب **فاروق يوسف** [نُشر في 2016/06/05، العدد: 10297، ص(10)]



راغب عياد صانع المناسبات السعيدة

لندن - إذا كنت ترغب في رؤية لوحة مصرية عميقة في انتمائها إلى البيئة ومتحررة في الوقت نفسه من القواعد المدرسية للرسم فما عليك سوى أن تعود إلى رسوم راغب عياد.

رسام الحواس كلها

تلك الرسوم لا تقدم صورة عن مستوى الرسم الحديث في ثلاثينات القرن الماضي بمصر فحسب، بل هي تقدم لك الحياة المصرية على طبق مزخرف بفكاهة الحس المصري الخفيف وهو ما جعلها تتفوق من جهة قدرتها التعبيرية على الكثير من التجارب الفنية الجادة والأصيلة التي كان أصحابها يسعون إلى قيام فن حديث بروح مصرية.

ذهب راغب عياد إلى الحياة اليومية مباشرة والتقط سحر العابر منها، بالرغم من أنه بسبب مسيحيته كان قد استلهم مفردات الحياة الأبدية في الأيقونات التي رسمها، لنجدها اليوم موزعة بين كنائس مصر وأديرتها.

هذا التنقل المرح بين الأبدى الخالد واليومي الزائل هو ما وهب عياد شخصيته الفذة التي تركت أثرا عميقا في الرسم المصري الحديث ملقية بظلالها على تجارب أجيال من الرسامين الذين لا يخطئ المرء حين يراها بنسبها المصري.

تجربة عياد التعبيرية يمكن تلخيصها بوضع الحواس كلها في خدمة حاسة البصر. النظر إلى رسومه يمكنه أن يكون تجربة في تمرين الحواس على أن ترى مثلما تفعل العين تماما.

لقد استوحى عياد من الصوت والرائحة والطعم والملمس أشكالاً، سيكون على من يراها على سطوح لوحاته أن يتوهم أنه سبق وأن رآها في الواقع. كما أن من يرى الكائنات التي اخترعها عياد لا بد أن يشم رائحتها ويسمع أصواتها ويتذوق سعادتها ويلمس كدحها كما لو كانت تستأنف حياتها من جديد في لحظة النظر.

راغب عياد لا يزال يهيم على الرسم في مصر، على الأقل في جانبه التشخيصي. الكثير من الرسامين المصريين يستعيدون أسلوب عياد كما لو أنه الضالة التي لا يمكن أن يكون الرسم مصرية من غيرها

لذلك فإن كل محاولة لخلق لوحة مصرية حديثة لم يكن يكتب لها النجاح إذا كانت قائمة على الرغبة في الإفلات من تأثير عياد.

ولد راغب عياد في القاهرة عام 1892. في طفولته وصباه درس في مدارس الفرير الأجنبية ثم التحق بمدرسة الفنون الجميلة عام 1908. بعدها تولى تدريس الرسم في مدرسة الأقباط الكبرى. إلى أن سافر إلى روما لدراسة الفن في بعثة تبادلية مع زميله يوسف كامل مطلع عشرينات القرن العشرين.

الفكرة التي ابتكرها عياد وكامل واقتنعت بها تقوم على أساس أن يؤدي الواحد منهما مهمات الآخر أثناء دراسته في أوروبا مع احتفاظهما براتبهما. وهو ما شكل حافزا للدولة لإنشاء نظام البعثات الفنية فكان أن أرسل عياد في بعثة فنية إلى إيطاليا.

وعبر خمسة أعوام من الدراسة حصل عياد على ثلاث دبلومات في فن التصوير الزيتي وفي الزخرفة وفي فن الديكور المسرحي. حين عاد إلى مصر، عين رئيسا لقسم الزخرفة في مدرسة الفنون التطبيقية. ثم انتقل للتدريس في مدرسة الفنون الجميلة، وتولى رئاسة قسم الدراسات الحرة فيها.

بعدها شغل منصب مدير متحف الفن الحديث بالقاهرة، ما أهله ليكون ممثلا لمصر في المجلس الدولي للمتاحف بباريس. وقد يكون مهما هنا أن أشير إلى أن عياد كان قد أشرف على تنظيم المتحف القبطي بمصر القديمة عام 1941، وكان صاحب فكرة إنشاء الأكاديمية المصرية للفنون الجميلة بروما، وكان أول من دعا إلى سن قانون تفرغ الفنانين كما أنه ساهم في إقامة متحف محمود مختار.

أقام عياد أكثر من أربعين معرضا شخصيا كما نال عددا من الجوائز والأوسمة وفي مقدمتها وسام من درجة فارس من

الحكومة الإيطالية. وجائزة الدولة التقديرية للفنون مع وسام العلوم والفنون من الحكومة المصرية. وفي التسعين من عمره توفي عياد عام 1982.



راغب عياد التقط من الحياة اليومية سحرها العابر

مصري بعمق ومعاصر بأصالة

راغب عياد هو ابن مرحلة الوطنية المصرية التي بلغت ذروتها مع ثورة عام 1919. غير أن اهتمامه بالشأن العام يعود إلى مرحلة مبكرة من حياته.

فيوم كان طالبا في مدرسة الفنون برز وزميله محمود مختار، الذي صار في ما بعد نحات مصر المبرّز، قائدين في إضراب طلابي، كان الهدف منه الاعتراض على لائحة حاولت نظارة المعارف أن تفرضها على المدرسة. وقد أدى ذلك النشاط إلى فصله من المدرسة، غير أن معلميه تدخلوا لتعطيل ذلك الفصل إيمانا منهم بموهبته الكبيرة.

وقد يكون لقاءه في روما بالزعيم السياسي سعد زغلول يوم كان عائداً من منفاه في سيشل إلى مصر، واحداً من أروع الأحداث التي صنعت مستقبلاً مفتوحاً للفن المصري الحديث.

لقد تعرّف السياسي يومها على الكفاح الذي خاضه الفنانان عياد وكامل من أجل أن يدرسا الفن الحديث في منابعه. وكان إعجاب زغلول بكبح الفنانين ونضالهما مصدرا لفتاعته في أن يكون للدولة دور في بناء نهضة فنية من خلال إيفاد مبعوثين مصريين لدراسة الفن في الخارج على نفقتها.

ومثلما كان عياد صاحب أفكار نهضوية في مجال إقامة حياة فنية على أسس حديثة فإنه استطاع من خلال تجاربه الفنية أن يؤسس لمدرسة فنية مصرية في الرسم (التصوير كما يسميه المصريون).

قوام تلك المدرسة مزاج شكلي مصري لا يبتعد كثيرا عن المناخات الحكائية، غير أنه في حالة عياد كان مشدودا ومقتضبا ببلاغة متدفقة لا تقبل التأويل الشعبي.



لوحة مصرية عميقة

عقدة عياد في تجلياتها

تاريخيا فإن عياد يحتل في الرسم المكانة التي يحتلها محمود مختار في النحت. لقد شكل الاثنان نقطتين صلبتين لبداية فن مصري حديث. بالمعنى الذي يؤسس لعلاقة سويّة ما بين التماهي مع مفردات الحضارة المصرية القديمة واستنتاجاتها الجمالية، وبين التأثر بإنجازات الفنان الأوروبي وكشوفاته الجمالية منذ عصر النهضة وحتى بدايات القرن العشرين. لقد قلب الفنانان قواعد اللعبة التي كانت سائدة يومها.

مصريا لا تزال رسوم عياد حية. لقد استطاع أن يصنع نموذجا مجسدا للروح المصرية، كما لو أنه قال "هو ذا المصري" فصار أسلوبه في رسم الشخصيات معيارا لقياس أصالة الأعمال الفنية. سيكون من حق الكثيرين الاعتراض على تلك المعادلة الظالمة، غير أن الواقع يقر شيئا لا أقره شخصا حين أقف مع المعترضين.

كان عياد فاتحا، ولم يكن من اليسير تجاوزه في عصره. فالرجل الذي انفتح على تيارات الرسم الأوروبي المعاصر وكان متأنيا في هضم كشوفاتها الجمالية وتقنياتها نجح في أن يشق طريقه مسلحا بتلك الكشوفات إلى الحياة اليومية المصرية لكي يعيد إنتاجها من خلال رسوم حديثة لا يشغلها الالتفات إلى الوراء كثيرا.

وهو ما أهله ليتحرر من المؤثرات المدرسية الأوروبية التقليدية ليؤسس فنا مصرية حديثا لا يخضع لسلطة الفلكلور ولا يتسلى بمفرداته. كان فن عياد نظيفا من العادات السياحية. وهو في هذا المجال كان فنا خالصا.

ذلك شيء، أما أن يتحول ذلك الفن إلى عقدة تقف في طريق تطور الفن فذلك شيء آخر. من وجهة نظري فإن عياد لا يزال مهيمنا على الرسم في مصر، على الأقل في جانبه التشخيصي. لا يزال هناك من الرسامين المصريين من يستعيد أسلوب عياد في الرسم كما لو أنه الضالة التي لا يمكن أن يكون الرسم مصرية من غيرها.

عياد لا يزال حيا من خلال رسوم الآخرين.

:: اقرأ أيضا